تتمة .....

في وداع إدوارد سعيد: الاستشراق والمثقف والسلطة

والثاني هو «إلقاء اللوم على الضحايا» العام ١٩٨٨ وقد حرر هذا الكتاب بالتعاون مع كريستوفر هتشنز.

إشكالية الاستشراق

يقول إدوارد سعيد في «الثقافة والإمبريالية» كلاماً سنشهد معناه كثيراً في كتاباته: «في جميع الثقافات المحددة تحديداً قومياً، كما أعتقد، هناك تطلع إلى السيادة». ولو توقفنا معه عند هذا الحد، لما رأينا جديداً، لكنه يضيف إلى السيادة فكرة «السطوة والسيطرة». ومع أنه يستشهد على ذلك بثقافات أوروبية آسيوية مثل الفرنسية والبريطانية والهندية واليابانية، فإنه يؤجل التمييز بين ثقافات تنزع إلى السيطرة من موقع القوة والتفوق، وثقافات تبسط بلاغتها الدفاعية على خطاب إنشائي، وتؤكد التعالي في معرض حماية الذات، لتكون النتيجة متوافقة مع المثل الشعبي العربي عمن يريد سلته سليمة ولو كانت بلا عنب. على أن هذا التمييز الذي لم ينشغل به إدوارد سعيد، أو أنه أجّل الانشغال به، لا يتناقض مع ما يذهب إليه - في كتاب الثقافة والإمبريالية أيضاً - من «أن الانشغال العقائدي بالهوية متشابك متعالق بمصالح وبرامج أهداف لفئات عدة تود أن ترتب أولوياتها بما يعكس هذه المصالح». وهذه الفئات التي يفرزها ماركس إلى طبقات هي التي تؤسس اللحظة القومية ببعديها المتناقضين: الاقتحامي الاستعماري، والدفاعي الوطني. وإدوارد سعيد الممحص لفحوى الخطاب القومي لا يفوته «أننا الآن أشد إدراكاً من أي وقت مضى، لكون التجارب التاريخية والثقافية هجينة مولدة». فهل معنى هذا أن أسطورة النقاء الثقافي هي المعادل الموضوعي لأسطورة التفوق العرقي؟ لقد رفض سعيد، بصراحة وحزم، أن يكون هناك تفاوت في الجينات بين الأمم، ولكنه أقر بالتفوق الثقافي مع تسليمه بأن الثقافات هجينة وقد أخذت أوضاعها النهائية من خلال الاحتكاك والاشتباك والحوار السلمي والعنيف على حد سواء.

وحين ينتفي النقاء الثقافي، تكون الشراكة في الإرث المعرفي ممكنة إن لم تكن واجبة. إلاّ أن ما يسهل فهمه عند الأفراد، سيحتاج إلى لحظة متعالية على الثقافة المجردة عند القوميات. تلك هي لحظة القوة. ويستشهد إدوارد سعيد، في كتابه ذائع الصيت «الاستشراق» بإشادة لورد بلفور بالحضارة المصرية إلى حد القول: «أي حق لديك لتستشعر الحس بالفوقية إزاء شعوب تختار أن تسميها شرقية؟» ولكن بلفور، صاحب الوعد المشؤوم المشهور، لا يدحض خطاباً غربياً استعلائياً، بل يتعهد الفكرة الاستشراقية النموذجية بقوله: «أهو خير للأمم العظيمة- وأنا أعترف بعظمتها-أن نقوم نحن بممارسة هذا النمط من الحكم المطلق؟» ويجيب عن السؤال فوراً: «في ظني أن ذلك خير». ويلخص بلفور خطاب أوروبا الاستعماري بالقول: «نحن في مصر لسنا من أجل المصريين وحسب- مع أننا فيها من أجلهم-بل نحن هناك أيضاً من أجل أوروبا كلها». ويلاحظ إدوارد سعيد أن بلفور لا يقدم دليلاً وحداً على أن المصريين يقدّرون أو يتفهمون «الخير» الذي يأتيهم من طرف الاستعمار، لأنه حين يقر بتفوق الحضارة المصرية، فهو إنما يهب مصر لماضيها، بما يشبه الرشوة المعنوية، ليسوغ، بحكم سبقه إلى معرفة تلك الحضارة، حكم بريطانيا لها، لا باسم بريطانيا، بل باسم أوروبا كلها كما كان واضحاً في خطابه. وبلفور، بما هو رمز استعماري تقليدي، يدرك معنى خير أوروبا كلها في كلامه. فهو وريث رؤيا غربية، وقد وسعت هذه الرؤيا معنى، الشرق- والكلام لإدوارد سعيد وما زلنا في كتاب الاستشراق-: «إلى مدى بعيد خارج نطاق العالم الإسلامي، وكان هذا التغير الكمي، إلى درجة كبيرة، حصيلة الاستكشافات الأوروبية المستمرة والمتزايدة للأجزاء الأخرى من العالم».

معرفة القوة

حين يذهب الخطاب الاستعماري السياسي، مسلحاً بمعرفة القوة وامتلاكها، إلى قوة المعرفة لتجنيدها في احتواء الشرق الموسع، فإن لقوة المعرفة عنواناً أكيداً يعرفه إدوارد سعيد ويحدده في الاستشراق «وليس الاستشراق مجرد موضوع أو ميدان سياسي ينعكس بصورة سلبية في الثقافة، والبحث والمؤسسات. كما أنه ليس مجموعة كبيرة منتشرة من النصوص حول الشرق، وهو ليس معبراً عن مؤامرة إمبريالية شنيعة لإبقاء العالم الشرقي حيث هو» وإذا لم يكن الاستشراق هو جماع هذه السلبيات، فإن المفاجأة هي أنه أخطر من ذلك عندما يحدده إدوارد سعيد بأنه توزيع للوعي الجغرافي السياسي على نصوص جمالية، بحثية، اقتصادية، اجتماعية، تاريخية، لغوية تنتهي بتقسيم العالم إلى جزئين غير متكافئين: الشرق والغرب في تصنيف يخدم المصالح التي لا يكتفي الاستشراق بخلقها، بل بالحفاظ عليها. ولا يتفق المفكر، الوزير اللبناني السابق د. غسان سلامة - أنظر مقالته عصب الاستشراق، مجلة المستقبل العربي اللبنانية: العدد ٢٣ - مع إدوارد سعيد في هذا التصور للاستشراق، ويتهمه بالبتر المؤدي إلى تحويل الشرق إلى شرق وهمي، ويستبعد د. سلامة أن يكون الاستعمار قد اكتفى بهذا الشرق الوهمي فيما هو ينهب خيراته على الأرض. ومع أني لم أقرأ رداً من د. سعيد على د. سلامة، فإن مثال بلفور الذي اقتطفته من «الاستشراق» يتكفل بالرد. فالغربي الاستعماري أشاد بشرق ماضوي على أن يكون الغرب الراهن-مكفلاً باستنهاضه، لأن الشرقيين المعاصرين لا يحسنون ذلك. واعتبر الغرب ذلك رسالة أوروبية. فمعرفة الغربي للشرق-كما ورد في الاستشراق- «تبرهن أو تنمي أو تعمق الفرق الذي امتد عن طريق السلطة والنفوذ الأوروبيين بشكل فعال فوق آسيا. »فإن يعرف المرء الشرق ككل إذن، هو أنه يعرفه لأنه موضوع تحت نظر المرء بشرط أن يكون المرء غربياً»، أي أن الغرب لا يتوهم الشرق بل يرسمه ويقولبه عبر خطاب ثقافي استعلائي. وإشارة سعيد إلى أن الثقافات هجينة من حيث تأثرها وتأثير بعضها في بعضها الآخر، لا تنام على سكون، بل إن الثقافات-وما زلنا مع كتاب الاستشراق - لا تتلقى ماعداها من الثقافات كما هي، بل تتلقاها كما يجب أن تكون لصالح المتلقي. وعلى هذا، فإن الاستشراق يعجز عن توحيد هويته بالتجربة الإنسانية، بل إنه لا ينجح في رؤية هذه الهوية بوصفها تجربة إنسانية. فالغربي المستشرق ينظر إلى الآخر الشرقي بعين الدهشة المنبثقة عن المختلف بما هو أدنى. يقول في كتابه «تغطية الإسلام« إن التقاليع الأوروبية الباحثة عن حكمة الشرق نادراً ما شملت الحكماء والشعراء الإسلاميين. إن عمر الخيام وهارون الرشيد والسندباد وعلاء الدين وحاجي بابا وشهرزاد وصلاح الدين، يشكلون، في الأرجح الأعم، القائمة الكاملة لكل الشخصيات الإسلامية التي يعرفها الأوروبيون المتعلمون في العصر الحديث. ولم يستطع حتى كارليل أن يجعل الرسول مقبولاً على نطاق واسع». وربما نسي إدوارد سعيد أن يذكر، ولو من جهة المناكفة، أن هذه الشخصيات نفسها وهي مزيج من التاريخي والخرافي، لا تسلم من القولبة الاستشراقية في عيون الغربيين. فشهرزاد، مثلاً، إما أنها المرأة الشرقية المستضعفة بوصفها امرأة، وإما أنها الداهية التي تسوغ عالم الجنس والتسري لتلعب بعقل الذكر الشرقي المسلم المتسلط شهريار. وإذا ارتقينا إلى النخبة الغربية، فإننا نفهم نقدها للإسلام ونبي الإسلام من موقع ديني مغاير، ولا يبقى مطلوباً إلاّ القراءة الموضوعية التاريخية لتقسيم المعادلة. ولكن عبقرياً غريباً مثل دانتي لم تزحزحه سعة أفق عالم مثل ابن رشد إلاّ بحدود تصور مكان لائق له في الجحيم. على أن استشهادي بدانتي ابن النصف الثاني من القرن الثالث عشر، ليس بريئاً. فالاستشراق بوصفه ظاهرة ثقافية- وأكاد أقول أنثروبولوجية- يستقصيه إدوارد سعيد منذ القرن التاسع عشر. ويتمسك د. صادق جلال العظم بتحديد الاستشراق في هذا الإطار التاريخي إلى حد نقده محاولة سعيد التفطن للبذرة الاستشراقية منذ أيام هوميروس السابق للميلاد. يقول د. العظم في كتابه ذهنية التحريم: «يعرض إدوارد نماذج من الآراء المشوهة والأحكام الخاطئة والمواقف العنصرية التي كان يحملها ممثلو العقل الغربي والثقافة الأوروبية حول الشرق من أمثال هوميروس وأسكيلوس ويوربيدس ودانتي» ليصل د. العظم من هذا إلى أن الاستشراق-كما يراه إدوارد سعيد-هو ظاهرة قديمة قدم حضارة الغرب وثقافته وفكره. ويحكم العظم على هذه الرؤية بأنها تنتمي إلى أسطورة الطبائع الثابتة. والواقع أن هذا الظلم لإدوارد سعيد- وأخشى القول: عدم الرغبة في فهمه- يتجاهل قصده الواضح، أن المغايرة والاختلاف هما اللذان يغريان بتضخم النظرة الاستشراقية التي يتلقفها السياسيون الاستعماريون ليسوغوا سيطرتهم على الشرق. وأن العين المثقفة لا ينقصها إلاّ أن ترى حتى ينتهي التحامل. يقول سعيد في تغطية الإسلام: «إن الحقل - وليس الشرق نفسه أو أهله كما يجب أن نلاحظ - قد وفر دوماً للثقافة الغربية كل ما تحتاج أن تعرفه عن الشرق، وبناء على ذلك، فكل من يتكلم لغة فرع الدراسة المعين، ويتسلح بمفهوماته، ويتقن أساليبه، ويمارس منهجيته وتقنياته، ويحوز مؤهلاته المعتمدة، سيكون قادراً على تخطي التحامل المتحيز والظروف الراهنة من أجل أن يطرح بيانات علمية». ليس في هذه النظرة ما يوحي بنظرة جدانوفية تقسم العالم إلى طرفين. ولكنها نظرة تطالب بالمعرفة والنزاهة والموضوعية. وسنرى من جهة ثانية أن إدوارد الذي ينتقد بمرارة أولئك الشرقيين الذين يشرقنون، أو يستشرقون أنفسهم، لينالوا القبول عند الغرب، هم المشكلة، وهو ما يقصده في أواخر كتاب الاستشراق: «يشكل العالم العربي اليوم تابعاً فكرياً وسياسياً وثقافياً للولايات المتحدة. لا تبعث هذه العلاقة على الأسى بحد ذاتها. لكن الشكل المحدد الذي تتخذه علاقة التبعية هذه هو الذي يبعث على الأسى». ويصيبنا د. العظم بالذهول في تأويله العدواني لهذه الفقرة - في كتابه ذهنية التحريم أيضاً - عندما ينتهي إلى أن إدوارد لا يعترض على التبعية، بل على الشكل الذي تتم به هذه التبعية، مع أن سياق الاستشراق من ألفه إلى يائه يقر للغرب، لأميركا تحديداً، بالقوة والتفوق، ولا يضير الضعيف أن يفيد من خبرة القوي، بل المشكلة هي في استبدال التعامل مع المعرفة والقوة الإيجابية بالتبعية إلى درجة إخفاء الذات. إنه يشن هجوماً لا هوادة فيه على «نقل معلومات خاطئة محض، وعلى التكرار، وعلى تجنب التفاصيل، وعلى غياب الرؤية الأصيلة. وكل ذلك يمكن تتبعه ورد أصوله لا إلى الإسلام، بل إلى «مظاهر في المجتمعات الغربية، وإلى وسائل الإعلام التي تعكسها هذه الفكرة عن الإسلام وتخدم مصالحها« وهذه الأخطاء والخطايا، لا نظرة إدوارد سعيد المتهم عند مكسيم رودنسون بالجدانوفية هي التي تعيد تقسيم العالم »إلى شرق وغرب، وهي المقولة الاستشراقية القديمة ذاتها من غير تغيير كبير، حتى لتعمى الأبصار لا عن العالم فقط، وإنما عن الذات أيضاً، وعن حقيقة علاقة الغرب مع ما يسمى بالعالم الثالث.

شرق وغرب

ولا يصعب على إدوارد سعيد أن يقتطف الشواهد بسهولة ليحدد النظرة الغربية التي لخصها في كتاب الاستشراق بسطر واحد: «ما دام الشرق ينتمي إلى عرق محكوم فقد كان عليه أن يظل محكوماً». وما كان لهذه النظرية الفظة أن تجد طريقها إلى السياسيين لو لم يمهد لها الأدب والفكر والمؤسسات العلمية في الغرب. يذكر إدوارد في «الثقافة والإمبريالية» أن أول دائرة أميركية للأدب المقارن قد تأسست العام ١٨٩١. وعلى ما في خطاب جورج وودبري، أول أستاذ كرسي في الدائرة، من تطمينات وكلام ناعم، فإن إدوارد يستخلص هذه النتيجة الأليمة: «لقد حمل العمل الجامعي في الأدب المقارن معه مفهوم أن أوروبا والولايات المتحدة معاً كانتا مركز العالم. لا بفضل موقعهما السياسي وحسب، بل لأن آدابهما كانت الأكثر جدارة بالدراسة أيضاً». إن هذه الملاحظة وحدها كافية لتجعلنا نفهم اختيار إدوارد سعيد أن يكون أستاذاً للأدب المقارن. فقد ذهب إلى موقع الاشتباك على قدميه. وهي مناسبة للإشارة إلى أن هذا المفكر الفذ، من أكثر الكتاب توافقاً بين الذاتي والموضوعي. وهو لا يمهلك حتى تستنتج هذا وتفسره، بل يتطوع بإبلاغك أنه اختار جوزيف كونراد موضوعاً لأطروحة الدكتوراه - كما يذكر في مقدمة كتاب مذكراته البديع: خارج المكان - لأنه وجد في سيرته الذاتية نقاط التقاء مع تجربة كونراد البولندي الذي كان مثلث اللغات، فهو يجيد البولندية طبعاً، والفرنسية بحكم تجربته لمدة أربع سنوات في البحرية الفرنسية، والإنكليزية بعد أن قضى سبع عشرة سنة من حياته في البحرية البريطانية. أما إدوارد سعيد، فهو فلسطيني المولد والانتماء، أميركي الجنسية، مصري النشأة الأولى، إنكليزي التعليم المبكر. وإذا كان يجيد لغات عدة فقد وجد في الإنكليزية أداة للتعبير، لكن ما شده إلى كونراد كان أكثر من هذا التشابه الظرفي والفيلولوجي، فروايات هذا الكاتب الكبير - ولاسيما قلب الظلام وتحت أنظار غربية - تخوضان في اليم الذي اجتذب إدوارد، وهو علاقة الثقافة الغربية مع، أو نظرتها إلى الشعوب الشرقية أو شبه الشرقية. وفي «الثقافة والإمبريالية»، يتوقف عند رواية كونراد الشهيرة «قلب الظلام»، منطلقاً مما أطلق عليه موضوعها الصريح، وهو الإمبراطورية، بل إنه اعتبر الرواية على المستوى الأدبي «جزءاً من السعي الأوروبي للتشبث بأفريقيا، والتفكير فيها، والتخطيط لها» وصولاً إلى الصراع عليها. ويلاحظ إدوارد سعيد أن مالرو، بطل رواية كونراد هذه